مع رواية «الثعابيني»

تأليف عبدالله عيسى السلامة[1]

لقد ذكرتني هذه الرواية بالقصة المترجمة تحت عنوان «مزرعة الحيوانات» لكاتبها «جورج أرول».

ولا يعني هذا أن للقصة السابقة تأثيرها على كاتب روايتنا الجديدة، ولكن طرافة الأسلوب، ونوع الطريقة التي اختارها لمعالجة موضوعه جعلني أتذكر تلك القصة، وأربط بينهما.

فكما أن كاتب «مزرعة الحيوانات» أراد من قصته تصوير الصراع السياسي والفكري في روسيا قبل الثورة الشيوعية وبعدها، فكذلك أراد كاتب رواية «الثعابيني» تصوير الصراعات السياسية والفكرية والعقائدية في دولة من دول العالم الثالث، في أفريقيا أو في أسيا.

وكذلك لا يعني هذا التشابه في الغاية تطابقاً أو تقارباً في الخطوط الأساسية لموضوعي الروايتين، بل لكل منهما ميزتها الخاصة، وأهدافها المميزة. ولكن يبدو أن هناك تشابهاً في استخدام الرموز الحيوانية الموحية على أبطال القصتين. ففي «مزرعة الحيوانات» يرمز إلى شخصيات القصة (بالخنزير، والحصان، والحمار، والقطة، والدجاجة... إلخ). ويدير بينها الصراع، أو يجعلها الفاعلة في الحوادث وفق أدوار محددة لتصور الصراع في دولة الحكم الشيوعي بروسيا، في زمن القيصر، ثم بعد قيام الحكم الشيوعي.

---

(١) عبدالله عيسى السلامة أديب وشاعر معاصر من سورية، ولد في محافظة حلب عام ١٩٤٤م، حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية من جامعة دمشق وعمل في التدريس في عدد من الثانويات في سورية. نشر عدداً من الدواوين الشعرية:

١ـ الظل والحرور ٢ـ واحة في التيه. ٣ـ ثآليل في جبهة السامري.

وله روايتان: ١ـ الثعابيني ٢ـ الغيمة الباكية.

وكذلك نرى في رواية الثعابيني أن الكاتب يرمز إلى أبطال قصته بأسماء مستوحاة من عالم الحيوانات في الغالب.

والدولة في نظر مؤلف مزرعة الحيوانات تشبه هذه المزرعة التي ينظر إليها الشيوعيون والماديون على أنها مصدر الإنتاج والاستثمار، والعطاء المادي، وأن حياتهم تدور حولها، وترتبط بها، بعيداً عن المعاني الإنسانية أو الفكرية والروحية والاجتماعية.

والإنسان، أو المخلوق، أو الكائن الحي ـ في نظرهم ـ رقم وسط هذا «الكم» الكبير الذي يضم الإنتاج والناس والحيوانات.

ولهذا فالبلاد ـ عندهم ـ هي هذه المزرعة، بما فيها من ثمار وزروع وحيوانات، وأشجار وحشائش، وبشر، والحاكم هو صاحب المزرعة المتميز، صاحب الإرث التاريخي الكبير «القيصر» الذي تحاول حيوانات المزرعة أن تخلصه هذه المزرعة، وتحل محله في إدارتها واستثمارها.

ويصف الكاتب كيف تآمرت الحيوانات «ويقصد بعض طبقات الشعب، وعلى رأسها فئة الخنازير، ثم الخيول» على صاحب المزرعة، مدفوعة بشهوة الطعام والاستئثار بخيراتها من دون صاحب المزرعة، ويؤجج ذلك كله حقد دفين، ثم تثور للاستيلاء على خيرات المزرعة، والتصرف بها كما يريدون. وهكذا تصبح شهوة المعدة فكرة سياسية، وعقيدة اجتماعية ومذهباً فكرياً في الحياة.

وكذلك نرى كاتب رواية «الثعابيني» يصور من خلال أبطاله ـ أصحاب الأسماء والرموز الحيوانية ـ الصراعات السياسية والفكرية في البلاد العربية والإسلامية، أو في البلاد التي تنتمي إلى دول العالم الثالث.

فالحاكم ـ في الرواية ـ يرى أن الشعب أقل منزلة من ثعابينه وأفاعيه المدلّلة فيقول: «قد تستغرب يا دكتور إن قلت لك: إنني أثق بهذه المخلوقات العجماء أكثر مما أثق بأي إنسان».

وكذلك يصرخ في وجوه: الحارس والمروِّض والمشرف على الطعام، ويقول لهم: «أسمعتم يا كلاب؟ أما خطر ببالكم أن ريش الهدهد ومخالبه ومنقاره القاسي يمكن أن تؤذي

بلعومها، أو معدتها أو أمعاءها الطرية الناعمة، خذوا يا أنذال. . خذوا. .» وانهال ضرباً بالكرباج على ظهورهم بعنف ونزق. (الرواية ص١١٦).

وهكذا من خلال سرد حوادث تجري في بلد ما. . ومن خلال تصوير هذا الحاكم الذي يحوّل كل مقدرات البلاد لنزواته وطيشه، يعرض لنا الكاتب صورة من صور التعامل بين الحاكم والمحكوم في هذا العصر. . ويعطي صورةً لانعدام ثقة الحاكم بشعبه، بل على الأصح صورة البعد بين الحاكم والشعب، وبين ما يرمي إليه الحاكم في تصرفاته، وما يحتاجه الشعب في حياته.

وكذلك يبين الصورة التي ينظر فيها هذا الحاكم للناس التي يتصرف من خلالها، فإذا كان الناس في نظره أقل قيمة من العجماوات فكيف يمكن أن يمنحهم ثقته؟ وإذا كانت الثعابين والحيات أكثر أهمية من الناس فكيف يهتم بأمور الرعية؟

ويلقب الكاتب شخصيات القصة بألقاب حيوانية، ابتداء من عنوان الرواية المنسوبة إلى الثعابين، ثم إلى بقية الشخصيات: «حوّاس الأرقط، وقبيلة التماسيح، وعشيرة القنافذ، وقبيلة الزنابير، وعنز الذرة، وزيدان الفاتك، والكركدن، والنمر. . . إلخ».

وأما مسرح الأحداث «المكان» فهو وادي النعيم، الذي يشبه مزرعة الحيوانات. . وكلاهما يعكس نظرة الحاكم إلى الدولة والحكم وكذلك نظرة كثير من المحكومين المتصارعين، حيث يعكس كلاهما فكرة المنفعة والاستغلال، وتحقيق الشهوات الحيوانية والمادية من وراء الحكم.

وكذلك يُسقط كلا الكاتبين صفات الحيوانات التي يرمزون بها أو بمشتقاتها على أبطال القصة كالمكر والوحشية، وعدم الإحساس بالرحمة وطرق اقتناص الصيد والانقضاض على الفريسة، وبروز المزايا الجسدية وبروز الغرائز. . . إلخ».

وكلا الروايتين تعالجان مسألة سياسية، وتتداخل فيهما عناصر متعارضة تجمعها المصلحة والمنفعة، ثم تتصارع على الفريسة، تبدو في الظاهر أنها تلتقي على هدف واحد، فتكشف الأحداث والحقيقة أنها تتآمر ويمكر كل منها للأخرى، وينهش كل واحد لحم الآخر وعرضه.

ولا بد من التساؤل: ماذا يريد كاتبنا ـ عبدالله عيسى السلامة من روايته؟ لقد استعرض الكاتب بنجاح صور الصراع السياسي، والتآمر الدولي، ولعبة صراع النفوذ في البلدان المتخلفة، أو في بلداننا وبلدان العالم الإسلامي، التي غدت فيها رؤية الحاكم، والمصلحة التي يريدها هي العقيدة والقانون والمصلحة المفروضة على الناس.

ومن خلال هذه الرموز التي أطلقها على أبطاله استطاع أن يجعل القارىء بعيداً عن تحديد مكانٍ ما لمسرح الأحداث، فقد يكون هنا أو هناك أو هنالك، لا تهم التسميات بقدر ما تهم المعاني والحقائق والأحداث، وكلما أحس القارىء بأن ملامح الصورة وتفاصيلها تنطبق على واقع ما، أو حيز معين، عاد ليرى أن بعض هذه الملامح تبعد هذا الحدس، وتشير إلى مكان آخر أو أمكنة كثيرة. وهي ميزة جيدة لهذه الرواية، عندما يصبح الرمز ذا دلالات واسعة لا تحجبه دلالته الخاصة، وإيماؤه لذات معينة عن أن يدل على أشكال أخرى وذوات أخرى مشابهة أو متقاربة.. وبذلك تخرج الرواية عن كونها تسجيلاً لأحداث وقعت في حيز محدود، وتغدو رمزاً لأنماط وأشكال أكثر اتساعاً، وأبعد مرمى.

ـ واستطاع الكاتب أن يصور اللعبة التي تمارسها الدول الكبرى في مناطق العالم الثالث، فتحرك الأتباع، وتدفع بالقوى العسكرية والسياسية وتستخدم المغامرين لتغيير الأوضاع بغية الوصول إلى أغراضهم السياسية الجديدة، وتُبرز أشكالاً مصطنعة من المجالس، والحكومات، والقوانين، تغيّر الألوان، وتجمع بين المتناقضات: تجمع القومي مع الأممي، والماركسي مع الرأسمالي، والمتدين مع الملحد، وتحرك الأحداث والأشخاص من وراء ستار، وتمارس هذه اللعبة لتحقيق المصالح الخاصة بهذه الدول، والناس في غفلة، تبهرهم المظاهر والأحداث، وتلهيهم الشعارات والزعامات.

ـ وكذلك يحرص الكاتب ـ وربما كان فريداً وسبّاقاً في هذا ـ على تصوير جانب من تجربة الإسلاميين في الأحداث السياسية، ومشاركتهم في بعض المراحل، واستطاع أن يلقي بعض الضوء على جوانب من الأخطاء والسلبيات لدى المجموعات الإسلامية المختلفة، بدءاً من أخطاء الأفراد، إلى أخطاء الجماعات. بل إن تأكيده على ذكر عددٍ من المجموعات، وليس مجموعة واحدة لدليل على هذه الأخطاء، وعلى القصور في تصور العمل والدعوة عند هذه المجموعات، إذ لم تستطع أن تحدد أو تتفق على أهداف واحدة

أو تتعاون ضمن جبهة واحدة إزاء الأحداث، مع أنها ـ جميعاً ـ ترفع راية الإسلام والدعوة. . مما جعلها وقوداً يحترق وسط الأحداث، وصيداً سهلاً للأعداء.

ـ إن عجز المجموعات الإسلامية عن تحديد برنامج واضح، ورؤية واحدة للأحداث والعمل الإسلامي يحمل في طياته حقيقة السلبيات المخيفة التي تنخر في جسمها وتؤكد وجود التناقضات والصراعات بينها، التي تتمثل في نسيان الهدف الأساسي للمسلم في الحياة، والبعد عن الغاية الأساسية لعمله ودعوته، وإيثار الولاء للأشخاص، وطغيان التفكير السياسي على عقول القادة، وضعف التفكير العقدي نتيجة لذلك، وتقديم المصالح الخاصة على مصلحة الدين والأمة، والوقوع في مصائد الآخرين باسم السياسة، والمرحلية والتنسيق. . إلخ.

ولهذا نرى كيف تصور الرواية اختلاف مواقف المجموعات، وتباين آرائها وتباعد قادتها، حتى أصبحت متعارضة، ومتباعدة أكثر من تعارض أي واحدة عن الأحزاب العلمانية، والمادية.

إن هذه الصورة التي برزت من خلال الرواية، وأحداثها، وأبطالها تجعلنا نقترب من الجواب على السؤال الذي طرحناه في بداية هذه الفقرة عن غايته من هذه الرواية:

ـ فلعل الكاتب يريد أن يصور تجربة الإسلاميين السياسية بكل سلبياتها وإيجابياتها وسط الأحداث، وبين الجماعات والأحزاب المتناقضة، ليرى القارىء مدى البعد والقرب، والخطأ والصواب، وطبيعة هذه العلاقات.

ـ ولعله يريد أن يرينا نماذج من القيادات الإسلامية. . ونمطاً من التفكير الذي هيمن عليها، وهي تمسك زمام الأمور، فندرك مدى الضعف والقوة، مدى الخطأ والانحراف، أو الصواب والاستقامة، ولنعرف الخطر الحقيقي حول هذه الجماعات، وصوراً معينة من الانحرافات.

ـ ولعله يريد أن يبرز حجم الإسلاميين ومدى فاعليتهم بين الفئات الأخرى.

ـ ولعله يريد أن يوضح أبعاد اللعبة السياسية التي ترتبط بثوابت خارجية ومتحركات ومصالح عديدة، وخيوط مشدودة إلى مراكز مختلفة، مع إلقاء الضوء على الشروط اللازمة

للمشتركين بهذه اللعبة، والصفات الضرورية للاعبين والمشتركين فيها.

ـ ولعله.. ولعله.. كل ذلك ورادٌ في نظري... وكل ذلك أدى إلى نجاح هذه الرواية بل وأعطاها امتداداً وسعة في آفاقها ومراميها التي أرادها الكاتب.

* * *

ـ والكاتب الفاضل الذي نعرفه شاعراً فناناً أصيلاً، لديه من الموهبة ما يجعل القارىء مشدوداً إلى أسلوبه، في الشعر، والرواية، ويحمل القارىء على التمعن في صوره وأفكاره، ويتذوق طبعه الشاعري وموهبته الفطرية التي تبدو آثارها في كل سطور الرواية، إضافة إلى تميزها بالسلاسة والعفوية مع العمق.

ـ ونرى الكاتب ـ أحياناً ـ يستغرق في الصورة ليحيط بأطرافها البعيدة، ويجوس مع القارىء في وهادها ومنحنياتها، حتى يبلغ أقصى حدودها ويستكشف مفاوزها قبل أن يعود إلى فكرته التي ساق الصورة من أجلها، فيبتعد حيناً في هذا الإمعان حتى تفتر حركة الأحداث، وقد تكاد تسكن في بعض اللحظات إزاء جريانه وراء الصورة، أو في استكشافه مجاهل الفكرة، أو في تقليبه لها، أو في عرض وجوه متعددة للصورة المبتكرة وتشبيهاته الطريفة، ولا سيما إذا كان ذلك مرتبطاً بصور السلوك أو مناحي التفكير عند بطل من أبطال روايته.

ومع ذلك لا يمل القارىء وهو يسير وراء الكاتب في عرض صوره، وشرح فكرته أو مع هذه اللفتات الجانبية المبثوثة في الرواية، ولا يشعر بأن الكاتب قد نسي صورة الأحداث، وغرق في الصور والأفكار.

ـ وكذلك فإن الكاتب أعطى التحليل النفسي قدراً لا بأس به من الاهتمام، فكان بعد كل حدث يغوص في أعماق الشخصية، فيحلل تصرفاتها، ويكشف ما يدور في داخلها، فتبدو الخريطة المتناقضة لهذه النفوس الآدمية التي تلعب بمصائر الناس فينعكس كل ذلك على الأحداث والشعب.

ـ وقد يلجأ إلى تداعي الأفكار والخواطر ليكشف عن بواطن الشخصية، فتبوح بما في

النفس، وتزيد في وضوح الصورة.

ـ وحركة الأحداث داخلية أكثر منها خارجية، تميل إلى الهدوء الظاهري في كثير من الأحيان، وتكاد تتوقف أحياناً أخرى، إما لاستغراق الكاتب في استجلاء صورة من الصور حتى تغدو قطعة أدبية فنية بحد ذاتها، وإما للغوص في تحليلاته التي غدت سمة بارزة عند الكاتب.

وليس صعبـا على الكـاتب المـوهـوب ـ ككـاتبنـا ـ أن يوازن بين حركـة الأحـداث وبين التحليلات والصور، خشية أن تتحول الرواية في بعض فصولها إلى تحليلات سياسية، أو دراسة فكرية عن الصراعات السياسية، أو منشورات حزبية في مناسبات معينة.

ـ وأسلوب الكاتب ـ لا شك ـ أسلوب مشرق، يأسر قارئه بسلاسته ووضوحه وقوته، ويعجبك بصوره وطرافته، ويقنعك بأن صاحبه فنان موهوب لم يدخل ساحة القصة متطفلاً أو مغامراً، وإنما دخلها وفي جعبته موهبة أصيلة، وقدرة فنية متمكنة، وثراء ثقافي وفكري واضح.

ـ بقي أن نقول لكاتبنا الفاضل بأن تصويره للإسلاميين في هذه القصة، من الجانبين: السلبي والإيجابي كان منصباً على التجربة السياسية، والاهتمام السياسي الذي برزت به الحركات الإسلامية وانشغلت طوال السنوات العشر السابقة، ولكن هذه الصورة تكشف عن أخطاء في هذا الجانب أولاً، وأخطاء في حصر اهتمامهم بالسياسة والحكم وما يتعلق بهما من أمور، وإغفال، أو تقصير مخلٍ في الجوانب الكثيرة التي ينبغي أن تكون موضع اهتمام المسلم الـداعية، والجمـاعـة التي تتصدى لحمل الإسلام، مثل الجوانب الاجتماعية، والتربوية، وجانب الدعوة واستمرارها وتطوير أساليبها في مختلف الحقول والاختصاصات وقطاعات الناس بالمفهوم الشامل للدعوة، وليس بالمفهوم الذي يحصرها في جانب واحد من جوانبها.

والجـوانب التي أعنيهـا تشمـل الحياة والمجتمع، الفرد والجماعات، الفكر والتربية والعلوم جميعـاً والسياسة والرياضة والنشاطات الاجتماعية والاقتصادية.. الرجل والمرأة، الطفولة والكهولة والشيخوخة، الشباب والمواهب إلخ..

وحينها تبدو السياسة جانباً ضئيلاً لا يستهلك هذه الطاقات، ولا يحرق في آتونه الجماعات، ولا يغدو فخاً تقع في مصيدته القيادات والأفراد. ويكفي لهذا الجانب (السياسي) أن يكون موضع اهتمام محدد، ضمن برنامج واضح، ودون النظر إليه من كوة كراسي الحكم، والوصول إلى السلطة، وإنما ينظر إليه من خلال ارتباطه بأهداف الدعوة وتحقيق الاحتكام إلى شريعة الإسلام ووصول الدعوة لكل الناس، حتى لا تكون الغاية انتقال الإسلاميين أو القادة إلى الحكم، بل انتقال الحكم إلى شريعة الإسلام.

فالسياسة لون من ألوان الدعوة يمارسها المسلم بأخلاقه وشروطه، لا بأخلاق الآخرين وشروطهم، هذه الدعوة التي تنظر إلى الحياة من أفق الشروق الذي يضيء جوانب الأرض كلها: الذُّرى والمهاد والوديان، أعالي الجبال، وذرى الأشجار، وبين الأوراق، ويدخل في طعم الأوراق، وإلى بطن الثرى ليحدث التغيير المطلوب. وحينها ينتصر الإسلام، وتنتصر الدعوة، وينجح المسلمون في السياسة والعلم، والتربية والاقتصاد... وينتقل المجتمع إلى دنيا شريعة الله.

ومهما يكن فلقد أضاف الكاتب الفاضل بروايته/ الثعابيني/ تجربة جديدة وناجحة، سلّط الضوء على جانبٍ مهم، وتميزت تجربته هذه بالطرافة والأصالة والعمق، وكانت رفداً جديداً للأدب الإسلامي.